الكذب عند الأطفال

بقلم السيدة زاهية مرزوق

يتطلب المجتمع منا معرفة حقنا من حق غيرنا، وكذلك يتطلب منا الأمانة فى سرد الحقائق. ونحن بدورنا نتطلب من الطفل مثل ما يتطلبه منا المجتمع ونحاسبه كما يحاسبنا المجتمع. ومما لاجدال فيه أن الطفل يكتسب صفة الصدق أو الكذب من بيئته التى تربى فيها. فإذا نشأ فى بيئة عمادها الصدق والأمانة كان صادقا أمينا وإذا نشأ فى بيئة عمادها الكذب والمراوغة وعدم الوفاء بالوعود كان كاذبا مخادعا، فهو يتخذ من أعمال مخالطيه مقياسا لأعماله؛ فإذا أصاب هؤلاء أصاب مثلهم وإذا أخطأوا كان هو أول الخاطئين؛ وكيف ننتظر من الطفل الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وأمامه والداه يكذبان لكل مناسبة وبغير حساب؛ فيرى الوالد يكذب حينما ينكر وجوده بالمنزل تخلصا من ضيف ثقيل. أو تهربا من الدائنين، ويرى الأم تكذب حينما تنكر عمل شىء خوفا من غضب الوالد أو انتقاد الناقدين. ويراهما الاثنين يكذبان حينما يعدانه بشىء ولا يبران بوعدهما أو حينما يمنيانه بنزهة شيقة فى حين أنه مسوق للطبيب. نفعل كل ذلك أمام الطفل ونتصور أن إدراكه لا يتسع لكل هذه الأمور وفى الحقيقة إنه يدرك كل مايدور حوله من هذه الأكاذيب والمراوغات وأن هذه العقلية الصغيرة لا تغتفر لأحد التلاعب بها والضحك عليها ولو فى أتفه الأمور

ومن الخير لنا أن نتوخى الصدق مع طفلنا فى كل أمورنا ومعاملاتنا حتى يعرف قيمة الصدق والامانة فى قوله وعمله، وحتى لا نجنى عليه جناية تعليمه الكذب والمراوغة والنفاق.

وأهم صفة أخلاقية يجب أن نشدد فى غرسها فى الطفل هى الصدق فإن هذه الصفة تؤثر فى جميع الصفات الأخرى، وتستقيم بالمرء حتما الى ما ننشده له من دماثة الخلق وحميد الخصال.

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم "أى صفة تريد أن أتحلى بها؟ قال الصدق" فقال الرجل فى نفسه "هذا أمر ما أهونه" وأخذ عهدا بألا يكذب. وعند ما خلا الى نفسه وحدثته بإتيان المنكر تذكر وعده للرسول بألا يكذب عليه وقال لنفسه، وكيف يكون الموقف لو سئل عن معصية أتاها؟ وهكذا ظل يزن بين الاستهواء والبر بالوعد حتى تغلبت الفضيلة عليه وصار من الصالحين.

وكثيرا ما تقودنا مصلحتنا الذاتية الى معاقبة الطفل على قوله الصدق، فالأم التى تضرب طفلها لأنه أفشى سرا للوالد كانت تريد إخفاءه عنه، أو لأنه اعترف للزائرين بوجودها بالمنزل رغم إنكارها، أو لأنها لقنته حكاية كاذبة فرواها بالصدق. هذه الأم إنما تجنى على طفلها جناية

لا تعرف مقدار أثرها فى مستقبله وأخلاقه وكذلك الوالد الذى يعاقب طفله على الصراحة فى القول والجرأة فى الحق فانه يقتل فيه أعز صفة فى أخلاقه . حدث أن طفلا كان صريحا فى بدء نشأته ، ولكن هذه الصراحة كثيرا ما كانت تؤلم والدته وكثيرا ما سببت له الضرب والايذاء ، وبعد قليل علمته التجارب أن الصدق غير مرغوب فيه ، وأن التمسك به لا يعود عليه إلا بالسخط والعقاب فأعرض عنه وبدأ بتجربة الكذب فى كثير من الأمور فبدلا من اعترافه مثلا بكسر الإناء كان ينكر كل علم له به ، فتتهم والدته الخدم وتنزل بهم العقاب على مرأى منه وهو يعلم تمام العلم أنهم أبرياء ، وتطاول فى التجربة حتى انغمس فى الكذب وصار يستخدمه لاتخلصا من العقاب فقط ، بل فى اختلاق ما يحلو له من أكاذيب إذا جرّت مغنما له ، فكان يدعى مثلا أن المدرسة كلفته بإحضار أشياء وهمية و يأخذ ثمنها لنفسه ، وكان لا يتورع عن الكذب والوقيعة بين من حوله ووصل به الحال حتى إلى الاختلاق على والديه والوقيعة بينهما بدرجة ظهر خطرها على علاقاتهما التى توترت أوصالها وانفصمت عراها .

وربما كان للطفل بعض العذر فيما يصوّره له خياله من أكاذيب، ففى إحدى مراحل نموه تمر عليه مرحلة يختلط عليه الخيال بالحقيقة ، فمثلا يتصور أنه رأى عفريتا أو ماردا فى الطريق ، و إذا ساعدته الظروف اشتد هذا التصور فى مخيلته لدرجة يعتقد بها أن ما رآه حقيقة لا ريب فيها ، فلا يجد نفسه إلا لاهثا من الجرى ليروى حكايته المحبوكة الأطراف لأول من يصادفه ، فاذا وجد إعراضا من السامع عن تصديق حكايته التى لا أصل لها إلا فى خياله فإن ذلك يؤلمه فى شعوره، وأما اذا وجد إقبالا وتشجيعا على سماعها فانه يسترسل فى سرد تفاصيل هى أبعد عن الخيال من الحكاية نفسها ، وسرعان ما يحلو له سرد الأقاصيص الكاذبة والتمادى فى الاستهتار بعقول الناس .

وربما يقول البعض إن هذه الاكاذيب لا ضرر منها ، إذ ما الضرر الذى ينتجه الطفل الذى يأتى فيروى حكايات تافهة لا تقدم ولا تؤخر ولا تؤثر فى كنه الحوادث أو فى علاقات الناس بعضهم ببعض ؟ ولكن كيف تكون النتيجة لو أن هذا الطفل استعذب هذه الأكاذيب والاختلاقات وتمادى فى التفنن فيها وتوغل فى أساليبها وتركها تطغى على كل أعماله وتفكيره ؟ لا شك أن النتيجة تكون وبالا عليه وعلى مستقبله وخسارة كبيرة على المجتمع . كذلك يجب ألا نصدم الطفل فى أول الأمر بأنه كاذب فى تخيلاته إذ بذلك نثبّط عزيمته عن التفكير والتصوير ، ونقتل فيه ملكة الخيال .

وما هذه القصص الخيالية التى نسمعها من الطفل إلا تمنياته وأمانيه يحيكها خياله على حسب ما يتصور و يتمنى ، و يدفعه شغفه بتلك الأمانى إلى الحلم بها حتى فى يقظته والتحدث بها للناس كأنها الحقيقة بعينها .

والواجب فى هـذه الأحوال أن نأخذ من الأمور أوسطها فلا نشجع الطفل بتصديقه المطلق لحكاياته ، ولا نصدمه دفعـة واحدة بتكذيبها ، بل نسمعها منه على علاتها ثم نناقشه الحساب فيها ونظهر له أوجه الضعف فى محتوياتها ونبين له ما كان منها معقولا أو غير معقول ثم نتدرج به حتى يحكم بنفسه على نفسه و يستخلص ما يصح أن يكون . و يجب أن نساعده فى التفرقة بين الخيال والحقيقية فى حكاياته المختلفة .

و يمكن للوالدين استغلال أحلام اليقظة هذه لمصلحة الطفل إذا شجعاه ومهدا له الطريق المستقيم إلى التعبير عما يجول بخاطره من خيالات وتصورات على شكل معقول يفيده فى تكوين عقليته وشخصيته .

وقد اختلف المربون فى كيف تنقل الأخبار المحزنة للاطفال ، وهل يكون ذلك بالصدق أو بالكذب . وهل يغتفر للأم مثلا تحت ضغط الظروف القاسية الكذب على طفلها تحاشيا لصدمة الأخبـار ؟ حقيقة كثيرا ما تجد ظروف مؤلمة تضطر الأم معها الى الكذب على ابنها أو ابنتها خوفا من عواقب الصدمة والـ ر بما يكون نتيجة ذلك اضطرابات نفسية شديدة فى الطفل . كما حدث للطفل الذى توفى والده أثناء تغيبه عن المنزل فى زيارة بعض الأقارب و بعد رجوعه لم يجد والده كعادته فسأل عنه فكذبت الوالدة عليه خوفا من صدمة الخبر ، ولكنه لم يلبث أن أخبره أصدقاؤه الذين توفى والده كلمة الموت بأبشع معانيها فرجع الطفل الى أمه يلح عليها فى السؤال ولما أنكرت فاجأها بخبر وفهمها أنها هى التى أخذت أباه منه فدفعته فى حجر ضيق لا يأكل فيه ولا يشرب واصبح يشك فيها ولا يأتمنها ظنا منه أنها يمكنها دفنه هو الاخر واضطربت حالته النفسية وسقم جسمه على مر الزمن ولم تفهم الأم ما انحدر اليه طفلها من سوء الحال إلا بعد أن لجأت الى العيادة النفسية وشرحت لها حقيقة الموقف . أما الطفل فقد عولج من هذا الشعور الذى تولاه بشرح بسيط لعملية الموت وكيف أنها ظاهرة طبيعية بين البشر لا يمكن لأى فرد أن يفر منها .

وقد يندفع الطفل فى خطأ أو ورطة يصعب عليه الخلاص منها فيضطر الى الكذب كما حدث فى حالة الطفل الذى تداين من أجل استكمال مجموعة صور الشكولاته ، وكان عظيم الأمل فى رد هذه الديون بعد حصوله على الجائزة الكبرى ، ولكن آماله لم تتحقق وكثر دائنيه ضغط الدائنين حتى اضطر إلى استعمال ثمن الكتب التى طلب منه والده توصيله للمدرسة .

ولما شددت عليه المدرسة فى طلب النقود لم يتمكن من تقديمها واضطر للهرب خوفا من عقاب المدرس . ولما ذهب للمنزل زعم أنه كان فى المدرسة طول يومه كالعادة . ولما ذهب للمدرسة فى اليوم التالى ذكر أنه كان مريضا بالأمس وأنه ما أتى إلا لعرض نفسه على الطبيب ، وهكذا تورط فى سلسلة هذه الأكاذيب حتى كادت تقضى على مستقبله وأخلاقه ولم ينقذه منها إلا اكتشاف الوالد لأمره صدفة وعمله على تلافى نتائج فعلته .

وقد تكون الغيرة والحسد أو حب الانتقام سببا قويا يدفع الطفل الى القدح فى سيرة زملائه لأولياء أمورهم و إلصاق جميع التهم الباطلة بهم كى ينالوا العقاب الذى يشفى غليله . مرت على فى الشهر الماضى حالة طفل اتخذ الكذب على رفاقه و لذم فيهم لتدويهم شغله الشاغل ، فكان يعمد الى محادثة أهل الطفل بالتلفون و يقول لهم مثلا إن ابنكم فلان يأتى من المعصيات كذا كذا وهو الآن مع فلان يقومون بمثل الأعمال . وهذا جازت هذه الحيلة على أهل الطفل أعطوه ما يستحق من العقاب الذى يطرب له الطفل الكاذب .

ومن الأطفال من يكون قليل النجاح فى حياته المدرسية فيستعيض عن الحقيقة بالخيال ليشبع رغبته فى النجاح ، فتراه يحاول إظهار نفسه فى ميدان الدرس أو اللعب فيدعى أنه البطل العظيم فى هذا أو ذاك ، و يجلس بين زملائه فيخطب فيهم بما أتاه من ضروب الفروسية والشطارة المدرسية مما يصور له أنه جاز على عقولهم ورفع من قيمته فى أعينهم ، وتراه يذهب إلى أمه فيقص عليها أخبار نجاحه وتفوقه فى المدرسة و يذكر لها كيف أن مدرسيه ذكروا اسمه بالفخر أمام جميع التلاميذ ، وكيف أنه كان الأول فى كل شىء وكيف أنه عمل كذا وكذا من شتى ضروب الشطارة والفروسية وهكذا يطاوعه خياله فينسج منه هالة الفخر والنبوغ لنفسه ، وكلما أظهر السامعون سرورهم من هذه الأخبار كلما زاد هو إمعانا فى اختلاقاته . وأحسن علاج لمثل هذه الحالات هو البحث عن مكان القوة فى شخصية الطفل و مواهبه واستغلالها استغلالا يشعره بنجاحه ولا يكلفه فوق طاقته فإن أكبر جزاء لمثل هؤلاء الأطفال هو ما ينالونه من نجاح ولو طفيف فى شىء من أعمالهم .

وربما استعمل الطفل الكذب لجلب عطف من حوله عليه وخصوصا اذا كان قد حرم من ذلك العطف فى مستهل حياته فتراه يختلق الألم والجوع أو يدعى اليتم والمسكنة أو الذلة والمهانة فى المنزل أو المدرسة ، وكثيرا ما نجد هذا النوع من الكذب فى دور المراهقة ، إذ أن الشاب فى ذلك الوقت أشد شعورا بحاجته الى العطف والمساعدة وجلب انتباه من حوله . ومن العادات الشائعة فى الوالدين أن يدققوا كثيرا فى استجواب الطفل عن مخالفاته و يضيقوا عليه الخناق حتى يضطر إلى الكذب هربا من هذا الموقف ، ولو أصاب الوالدان لوضعا همهما فى معرفة الأسباب التى دعته الى المخالفة وعملا على ازالة هذه الأسباب حتى لا يضطر الطفل للنزول بمستواه الخلقى الى درجة الكذب .

وصفوة القول ان عادة الكذب من أخطر العادات وأشدها أثرا فى حياة الطفل ومستقبله ، ولذلك يجب علينا جميعا محاربتها بتفهم أسبابها ودوافعها والعمل على ملافاتها ، ويجب أن نفهم كذلك أن ما يصل اليه الطفل من الأمانة والصدق انما يتوقف على مقدار ما يحصله من تجاربه الخاصة ومن البيئة التى يعيش فيها .

زاهيه مرزوق